السابق

جبران خليل جبران

السابق

THE FORERUNNER

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ السابق/ جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام 2003 عدد النسخ 1000 نسخة

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب 30598

هاتف: 5617071 فاكس: 56113241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام1883 في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام 1898، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان 1902 بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض، وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام 1905، وأتبعه عام 1906 بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام 1908 والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز1908 حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة 1912 أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة 1912 بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة1916 كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام 1920 أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام 1919 قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام 1920 كتابه (العواصف)، وفي عام 1923 نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام1918 باللغة الإنكليزية وأتبعه عام1920 بكتاب (السابق) وعام1923 صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة 1925 التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام 1926، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام 1927، و(آلهة الأرض) عام 1930، و(التائه) سنة 1931 وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع 1931 اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام1929 حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكوّنات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أمـا بنيــة الأدب الجــبراني، فتتــألف مــن مزيــج مــن العنــاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثـوري وحداثـي فـي الوقـت نفسـه، وإذا كنّـا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلـى التدليل علـى وجودهـا. أمـا كيف تتجدل هـذه الخيـوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسـان، الـذي لا يـراه محـور الكـون، ولـبَّ الوجـود وحسـب، بـل إنـه يرفعـه إلـى مصـاف الألوهيـة، إذ إنّ (الإنسـانية روح الألوهيـة علـى الأرض) علـى حـد تعبيره فـي نصـه (صـوت الشـاعر).وهـو يقـول فـي (نشـيد الإنسـان): (أنـا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضـب العنـاصر، ومثـل عمـود نـور منتصبـة بـين خرائـب بـابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن — لا ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم — لم تجئ معه السموم
ليس في الغابات حرّ — لا ولا العبد الذميم
إنما الأمجاد سخف — وفقاقيع تعوم
لم أجد في الغاب فرقاً — بين نفس وجسد
فالهوا ماء تهادى — والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطر — وتنشّفتَ بنور
وشربت الفجر خمراً — في كؤوس من أثير
هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً — وتَلَحَفّتَ الفضا
زاهداً فيما سيأتي — ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، وولَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصّاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام 1911 كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام1916 كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام1911 بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة1917: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

السابق

دراسة تحليليّة

جبران وعقيدة (التقمّص)

صدر كتاب (السابق) لجبران باللغة الانكليزية عام 1920، أي في السنة نفسها التي صدر فيها كتاب (العواصف) باللغة العربية، وهي السنة التي أسس فيها جبران أيضاً (الرابطة القلمية) مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وندرة حداد ونسيب عريضة وآخرين.

وهو ثاني كتاب يصدر له بالإنكليزية، بعد (المجنون) الذي نشره قبل ذلك بعامين. وبما أن كتاب (النبي) سوف يظهر بعده (عام 1923) فإن هناك مَن يعتبر أن المقصود بـ(السابق) أن يكون سابقاً لظهور (النبي)، كما كان (يوحنا المعمدان) سابقاً لظهور المسيح[1] .

---

[1] ميخائيل نعيمة. مقدمة كتاب النبي لجبران خليل جبران- موئسة نوفل للطباعة والنشر- بيروت-صفحة 7.

وفي الحقيقة، فإن مفهوم (السابق) مرتبط بعقيدة (التقمّص) و(العود الأبدي) كما هو واضح في الكتاب منذ النص الأول فيه، حيث يقول جبران: (أنت سابق نفسك يا صاح، وما الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبّارة، وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها). ويقول أيضاً : (منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الأبد). كما يعّرف السابق في النص الأخير من الكتاب بقوله: (هو صدى الصوت الذي لم تسمع به أذن بعد).

والكتاب بمجمله يدور حول فكرة التقمص، فهو يضم نصوصاً يعرض فيها جبران مفاهيمه الخاصة عن خلود الروح وتقمّصها والعود الأبدي والتوق إلى الذات الجبّارة أو العظمى، مثل نصوص (أنت سابق نفسك، الذات العظمى، طائر إيماني،وراء وحدتي،واليقظة الأخيرة). أما النصوص الأخرى، فيبدو أن جبران أراد أن ينقل من خلالها عدداً من المشاهد والحكايات التي عاشها (السابق) في حيواته المتعاقبة، والتي تغني معرفته بأسرار العالم والوجود وتكون أساساً للذات الجبارة التي هي الهدف الأسمى للوجود البشري.

ومن المعروف أن جبران كان شديد الإيمان بفكرة (التقمّص)، لا في كتاباته فحسب، بل في حياته الشخصيّة أيضاً. فهو يؤكد في إحدى رسائله إلى (ماري هاسكل) (ان عنده شعوراً واعياً بكونه عاش حياة بشرية في الماضي)[(2)].

[(2)] توفيق صايغ-أضواء جديدة على جبران-رياض الريس لندن1990-صفحة65.

كما يقول لها في رسالة أخرى مؤرخة في عام 1911 أنه (في حيواته الماضية عاش مرتين في سوريا ،لكنما لفترات قصيرة، ومرة في إيطاليا إلى سن الخامسة والعشرين، وفي اليونان حتى الثانية والعشرين، وفي مصر حتى الشيخوخة، وعدة مرات، ست مرات أو سبعاً ربما، في بلدان الكلدان، وواحدة في كل من الهند وفارس، ويردف أنه في هذه الحيوات كلها كان كائناً بشرياً، لكنه لا يعرف شيئاً عن حيواته قبل ذلك)[3] .

و يؤكد (ميخائيل نعيمة) في مقدمته للمجموعة الكاملة للمؤلفات العربية أن (جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمص ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء. بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة)[4] .

ويمكن لنا أن نتبيّن الأهمية المحورية لعقيدة التقمص في فكر جبران وأدبه، من خلال تصفّح كتبه التي سبقت صدور كتاب (السابق)، إذ يكاد لا يخلو واحد منها من نص يدور حول هذه الفكرة، أو من إشارة إليها. ففي كتاب (عرائس المروج) الصادر عام 1906، نجد نص (رماد الأجيال والنار الخالدة) الذي تعود فيه روحا (ناثان) وعروسه إلى الحياة بعد قرون، لتصلا ما قطعه الموت من حبهما[5].

---

[3] المرجع السابق-صفحة65.

[4] ميخائيل نعيمة- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران-دار صادر-بيروت صفحة7.

[5] جبران-عرائس المروج--مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002-صفحة 43.

وفي كتاب (الأرواح المتمردة 1908) تؤمن بطلة قصة (مضجع العروس) بأن مضجع الحب الحقيقي ينتظرها مع حبيبها بعد موت جسديهما[6].

وفي كتاب (دمعة وابتسامة-1914) يقول جبران في نص (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء)[7].

أما في قصيدته (المواكب-1919) فيؤكد جبران على العود الأبدي، إذ لا تفنى الذرات في الجسد ولا في الأروح، ويشبه الجسم برحم تستكين به الروح ريثما يأتيها (الموت) الذي ما هو في الحقيقة إلا عهد مخاض تولد فيه من جديد:

ظلَّ الجميع فلا الذرّات في جسد	تثوي ولا هي في الأرواح تحتضرُ
والجسم للروح رحم تستكنّ به	حتى البلوغ فستعلي وينغمرُ
فهي الجنين وما يوم الحِمام سوى	عهد المخاض فلا سقط ولا عسرُ[8].

وفي كتاب (المجنون 1918) يتحدث عن الحيوات السبع على الأرض[9]. أما في كتاب (العواصف) الذي تزامن صدوره مع صدور كتاب (السابق) فنجد الأمير والشاعر البعلبكي اللذين عاشا سنة 112

---

(6) جبران- الأرواح المتمردة-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002 صفحة 85.

(7) جبران-دمعة وابتسامة-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002- الصفحة 196.

(8) جبران-المواكب-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002-صفحة 87.

(9) جبران-المجنون-مؤسسة علاء الدين-دمشق-20020نص (كيف أصبحت مجنوناً.

قبل الميلاد في مدينة بعلبك، يعودان إلى الحياة في مدينة القاهرة سنة 1912 للميلاد[10].

وقبل أن نستعرض رؤيته حول (التقمص) كما وردت في كتاب (السابق)، يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنبحث في المصادر التي يمكن لجبران أن يكون قد استقى إيمانه بهذه الفكرة منها. فالتقمّص عقيدة شائعة وقديمة، نصادفها في معتقدات وآداب الكثير من الشعوب القديمة والحديثة، التي لا بدّ أن جبران قد اطلع عليها، أو على بعضها، كما سنرى فيما يلي:

1-من المعروف أن فكرة (التقمّص) تشكّل ركناً رئيساً من أركان المعتقد الديني عند عدد من الطوائف الإسلاميّة، وبشكل خاص عند أبناء طائفة (الموحدّين الدروز) الذين يستوطن قسم منهم في (جبل لبنان) ولعبوا دوراً رئيساً في تاريخ لبنان السياسي، لاسيّما في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (فترة حياة جبران). وتقوم عقيدة (التقمص) عندهم على (إن الجسم الإنساني قميص للروح، التي هي النفس المتحدة بالعقل، ولما كان الجسم عَرَضاً، قابلاً للاستحالة والفناء،فإن جوهر الحياة يبقى متمثلاً بالنفس المنتقلة من القميص الذي يدهمه الموت إلى قميص آخر هو جسم المولود في لحظة ولادته. وهكذا تتقمّص الأنفس، إناثاً إناثاً وذكوراً ذكوراً، وتبقى هي هي لا تنقص ولا تزيد ولا تستبدل،

[10] جبران-العواصف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002 الصفحة 194.

وإنما الذي يتبدّل جيلاً بعد جيل هو صورة الأقمصة التي هي الأجسام)[11] .

ومن غير المستغرب أن تكون هذه الفكرة قد وصلت إلى جبران في طفولته خلال الفترة التي قضاها في لبنان، كما يمكن له أن يكون قد سمع العديد من قصص التقمّص التي يتناقلها سكان جبل لبنان، قبل أن يتاح له الاطلاع على هذه الفكرة في معتقدات وآداب الشعوب الأخرى. ولذلك يمكن للمرء أن يفترض أن عقيدة (التقمّص) عند الموحدين الدروز، هي المصدر الأول لهذه الفكرة عند جبران.

2- تقوم فكرة (خلود الروح) عند الفراعنة في مصر القديمة على أن الروح تستبدل بالوفاة جسدها المادي بجسد أرقى منه وأرق لا يتعرّض للفناء، ثم تعود إلى جسدها الأول (المحنّط) كي تحيا به في عالم الخلود[12] وفي الواقع، يمكن لنا العثور في كتابات جبران المبكّرة، على أكثر من إشارة، تدلل على اطلاعه على الحضارة الفرعونية، منها ذكره لقدماء المصريين في كتابه الأول (الموسيقا / 1905)[13] وذكره لابنة ايسس الفرعونية في نص(اللقاء)في كتاب(دمعة وابتسامة-1914)[14].

---

[11] يوسف سليم الدبيسي-أهل التوحيد(الدروز)-دمشق-1992-الجزء الثاني-الصفحة 166.

[12] المصدر السابق-الصفحة165.

[13] جبران-الموسيقا-مؤسسة علاء الدين-2002صفحة42،

[14] جبران-دمعة وابنسامة-مؤسسة علاء الدين-دمشق2002-صفحة 136.

3-يعتقد بعض الدارسين أن كتب (الهندوس) المقدسة تعود إلى ألفي سنة قبل الميلاد، ومنهم من يقول إنها تعود إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد، وفي هذه الكتب إشارات واضحة إلى فكرة (التقمّص) مما يجعلها مكوّناً رئيساً من مكونات المعتقد الديني الهندوسي. ففي كتاب (البغفاد-غيتا) المقدس نقرأ ما يلي: (كما تمرّ النفس المتجسدة باستمرار في هذا الجسد، من الطفولة إلى الشباب، إلى الشيخوخة، هكذا تنتقل النفس عند الموت إلى جسد آخر..كما يرتدي الإنسان ثياباً جديدة ويلقي بثيابه البالية بعيداً، هكذا ترتدي النفس أجساداً مادية جديدة، وتلقي بالأجساد البالية جانباً) وفي كتاب (منوسمرتي) المقدس أيضاً عبارات كثيرة تشير إلى التقمص منها: (إن الإنسان لينال جزاء أعماله في الحياة الثانية بحسب النية التي ارتكب بها عمله في هذه الحياة وبجسم له صفات جسمه)[15].

ومن المعروف أن هذه الفكرة قد انتقلت من الهندوسية إلى البوذية، إذ نجد عند بوذا تعبير (السمسارا) وهي حلقة مفرغة رهيبة تمرّ بها النفس البشرية عندما تموت،ثم تولد من جديد على نحو متكرر، فالناس مرة بعد مرة يتركون من يحبونهم من الأهل عندما يموتون، ويكون عليهم أن يسيروا في ميلاد جديد دون توقف أبداً،مثل العجلة المتحركة .كما نجد تعبيراً آخر هو (الكارما)، وهي كلمة سنسكريتية معناها الحرفي (الفعل)، ويذهب هذا التعبير إلى أن هذه

---

[15] د.قيس غوش. جبران في ضوء المؤثرات الهندية والتيوزفية-دار نوبليس-بيروت**1997**-صفحة**109**.

الحياة حلقة في سلسلة حيوات يحياها المرء يحددها فعله في الحياة السابقة، والتعبير يتضمن مفهومي (الجزاء والتاسخ)[16].

ويبدو أن جبران قد اطلع مبكراً على هذه التعاليم الهندوسية والبوذية، بدليل أنه ذيّل نصّه الأول الذي يتحدث فيه عن (التقمّص)، وهو(رماد الأجيال والنار الخالدة) في كتاب(عرائس المروج 1906) بالهامش التالي: (قال بوذا الهندي: كنا بالأمس في هذه الحياة، قد جئنا الآن، وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة)[17].

4- تحتل أفكار(خلود الروح) و(التقمّص) و(العود الأبدي) مكانة خاصة في الفلسفة اليونانية، وربما تعود بوادرها إلى فلسفة (انكسمندر) حين قال بعدد لا متناه من العوالم، ثم ازدادت الفكرة وضوحاً عند (هرقليطس) الذي تحدث عن عودة العالم عوداً مماثلاً لصورته السابقة خلال دورات معينة من الزمان. كما قال (أنبادقليس) بالتتابع الأبدي لعوالم متتالية[18] إلا أن التجلي الأكمل لهذه الأفكار نجده عند (فيثاغورث) الذي يقول بأن الأرواح لا تفنى بفناء الأجساد، وإنما تبقى سابحة في الفضاء إلى ان تهبط إلى الأرض لتتقمّص جسم إنسان أو حيوان. وإذا فارقت جسم الحيوان فقد تتقمّص جسم إنسان أو حيوان آخر. وكان يقول إنه يمتلك

---

[16] بوذا-تأليف جين هوب، وبورنفان لون-ترجمة إمام عبد الفتاح إمام-المشروع القومي للترجمة-القاهرة-**2001**-صفحة**27** و**28**.

[17] جبران-عرائس المروج-علاء الدين-**2002** صفحة **46**.

[18] الدكتور فؤاد زكريا-نيتشه-دار المعارف بمصر-الطبعة الثالثة-صفحة**138**

ذاكـرة خارقـة يسـتطيع معـها أن يتذكـــر بعــض حــوادث حيواتــه السـابقة، ففـي إحداهـا كـانت روحـه متقمّصـة جسـد إنسـان يدعـى (إيتـاليدس)، ولمـا توفـي انتقلـت روحـه إلـى جسـد إنسـان آخـر هـو (أوفورباس)، فحضـر حصار طـروادة وجـرح فـي المعركـة،ثم توفـي فانتقلت روحه إلى جسد صيّاد يدعى (بورس). وبعد وفاته انتقلت إلى جسده الحالي الذي هو جسد (فيثاغورث)[19].

أما أفلاطـون، فينقل على لسان سـقراط فـي محـاورة(أفيـدون أو خلود الـروح) قولـه: ولكنـي ثابت الإيمـان بحقيقـة العودة إلـى الحيـاة[20]. ويضيف سقراط: إن من اندفعوا وراء الشر والفجور والسـكر، ولـم تـدر فـي خلدهـم فكـرة اجتنابـها،سـينقلبون حمـيراً ومـا إليـها مـن صنـوف الحيـوان.. وهـؤلاء الذيـن اختـاروا جـانب الظلـم والاسـتبداد أو العنــف، سـينقلبون ذئابـاً أو صقـوراً أو حـدأً... وأولئـك الذيـن اصطنعـوا الفضـائل المدنية والاجتماعية التي تسمى بالاعتدال والعدل، والتـي تحصـل بالعـادة والانتبـاه،دون الفلسـفة والعقـل، أولئك هـم أسـعد نفسـاً ومقامـاً..لأنـه قـد يرجـى لـهم أن يتحوّلـوا إلـى طبيعـة اجتماعيـة رقيقـة تشـبه طبيعتهم، مثـل طبيعة النحل أو النمل، بل يعودون مرة ثانية إلى صورة البشر، وقد يخرج منـهم أنـاس ذوو عـدل واعتـدال...أمـا الفيلسـوف، أو محـب التعلـم، الـذي

---

[19] الدكـتور رؤوف عبيـد-الإنسـان روح لاجسـد-الجـزء الأول الصفحـة117، نقـلاً عـن كـتـاب الدبيسي السابق ذكره صفحة166

[20] أفلاطون- محاورات أفلاطون-ترجمة زكي نجيب محمود-الهيئة المصرية العامة للكتـاب-مكتبة الأسـرة-أمهات الكتب2001-صفحة187

يبلغ حدّ النقاء عند ارتحاله، فهو وحده الذي يؤذن له أن يصل إلى الآلهة[21].

5-ربما كانت فكرة (العود الأبدي) المحور الأهم الذي دارت عليه فلسفة (نيتشه) في مرحلتها الناضجة، أي منذ عام1881 حين خطرت له الفكرة أول مرة، فراح يعبّر عنها بأشكال متعددة، ويربط بينها وبين نظرياته في الأخلاق والفلسفة والدين، كما عمل جاهداً على أن يجد لفكرته هذه دعامة علمية، يستند فيها إلى دراسة العلوم الطبيعية[22].

وقد تكفي الفقرة التالية لتلخيص فكرة نيتشه، حيث يقول على لسان زارادشت في كتابه المشهور(هكذا تكلم زارادشت) ما يلي: (إن شبكة العلل الدائرة بي ستعود يوماً فتخلقني مجدداً، فما أنا إلا جزء من علل العودة الأبدية لكل شيء! سأعود بعودة هذه الشمس وهذه الأرض ومعي هذا النسر وهذا الأفعوان، سأعود لا لحياة جديدة ولا لحياة أفضل ولا لحياة مشابهة بل انني سأعود أبداً إلى هذه الحياة بعينها إجمالاً وتفصيلاً فأقول أيضاً بعودة جميع الأشياء تكراراً وأبداً، وأبشّر أيضاً بظهيرة الأرض والناس وبقدوم الانسان المتفوّق.)[23] .

ويبدو أن علاقة جبران بفكر نيتشه، تعود إلى مراحل تكوينه

---

[21] المرجع السابق-الصفحة209-210

[22] الدكتور فؤاد زكريا-نيتشه-دار المعارف بمصر-الصفحة140

[23] نيتشه-هكذا تكلم زارادشت-ترجمة فليكس فارس-دار القلم-بيروت-صفحة252

الأولى، فهو يروي لماري هاسكل في إحدى رسائله (انه أحب نيتشه منذ أن كان في عامه الحادي عشر أو الثاني عشر)[24]، و تسرد ماري في رسائلها الكثير عن الجلسات التي صرفتها مع جبران في قراءة أعمال نيتشه .كما يروي ميخائيل نعيمة أن كتاب (هكذا تكلم زارادشت) كان في نظر جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)[25].

6- من المأثور عن الشاعر والرسام الانكليزي (وليم بليك/1757-1828) أنه (كان يؤمن بالكشف والولادة الثانية)[26]. وقد أشارت ماري هاسكل إلى الشبه بينه وبين جبران، بل إنها اعتقدت أن روح بليك ربما تكون قد تقمّصت شخص جبران؛[27].أما جبران، فقد كان شديد الإعجاب ببليك إلى درجة أن يقول عنه: (بليك هو الرجل، هو الإنسان-الإله. انه في رأيي أعظم رجل انكليزي منذ شكسبير)[28]. وهناك شاعر وفيلسوف آخر أثّر بشكل ما، على جبران ،هو الأميركي (رالف والدو امرسون/1803-1882) زعيم ما يسمى (مدرسة التعالي)، وكان يؤمن بفكر إنساني واحد دعاه بالروح الكلي، كما بشّر بأن الالهام الالهي لاينقطع وأن الانسان الفرد يتصل به وساطة الحدس.. وتميز تفكيره بانفتاح عميق على تراث الشرق الهندي والفارسي والعربي[29].

---

[24] توفيق صايغ-أضواء جديدة على جبران-رياض الريس-صفحة229

[25] ميخائيل نعيمة-مقدمة المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران-دار صادر-صفحة25

[26] نذير العظمة-جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية-دار طلاس-دمشق1987-صفحة104

[27] توفيق صايغ-سبق ذكره-صفحة207

[28] توفيق صايغ-المرجع السابق-صفحة207.

[29] نزير العظمة-مرجع سبق ذكره-صفحة81

7-كانت أمريكا ،أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تعجُّ بالحركات والجمعيات الفلسفية والصوفية التي تستمّد الكثير من أفكارها من المعتقدات الشرقية، مثل المدرسة التيوزفية التي تقوم على مبادئ الكارما والتناسخ، ويقال (إن جبران انضمّ إلى المدرسة التيوزفية في بدايات القرن العشرين، أما نعيمة فانه لم يتعرف عليها إلا بعد سنة1915 ،فانعكست أفكارها في فكر جبران وفنه منذ بداية القرن)[30]. كما ان أعضاء نادي (الكاميرا) الذين كان يجالسهم في مرسم صديقه (فريد هولاند داي) كانوا يؤمنون بالكثير من المعتقدات الروحانية والصوفية. ويمكن أن يكونوا قد تركوا أثراً في تفكير جبران وإيمانه بخلود الروح والتقمّص.

وعلى كل حال، فإن دراسة فكرة (التقمّص) عند جبران، تبيّن لنا أنه لا يدين بها إلى مذهب واحد أو عقيدة محدّدة، فقد لجأ (على عادته) إلى صنع (توليفة) من عناصر متعددة من تلك المذاهب المختلفة، بحيث أصبحت هذه التوليفة التي تحمل توقيعه الخاص، منسجمة مع فلسفته العامة في الإنسان والعالم والوجود، وذلك ما سنراه من خلال عرضنا التالي لرؤيته الخاصة للتقمّص كما تجلّت في كتابه (السابق):

يقول جبران في النص الأول من الكتاب: إن الإنسان سابق نفسه، بمعنى أن وجوده، كجوهر أصلي، سابق لتجسّده كفرد يعيش في هذه الحياة. فالإنسان في الأصل كان فكرة هائمة في الضباب، أو

---

[30] قيس غوش-جبران في ضوء المؤثرات الهندية والتيوزفية- صفحة67

كلمة صامتة بين شفتي الحياة المرتعشتين، وعندما اشتاقت الفكرة إلى الحياة، وتلفّظت الحياة بكلمتها، برز الإنسان إلى الوجود، وقلبه خافق بتذكارات الأمس والحنين إلى الغد. وما أمس الإنسان، سوى انتصاره الدائم على الموت. وما غده سوى انتظار الميلاد الجديد، الذي بخلّصه من الحياة السابقة، ليفتح أمامه أبواب حياة جديدة. فالإنسان بداية متجددة، وسيبقى بداية إلى الأبد. فالظل الذي ينبسط أمامه عند شروق الشمس، سيتقلّص تحت قدميه عند الظهيرة. وسيعقب هذا الشروق شروق آخر، فيحدث ظلاً ثانياً، سيتقلّص بدوره في ظهيرة أخرى. ووجود الإنسان على هذه الأرض مثل ذلك الظل الذي ما ان ينبسط حتى يتقلّص، ريثما تشرق شمس ولادة ثانية تعيده إلى الحياة من جديد.

إلا أن هذه العودة الدائمة إلى الحيوات المتعاقبة، ليست بغير معنى أو هدف، فالإنسان، في كل دورة من دورات الحياة، يقيم (أبراجاً) تكون أساساً لحياته التالية. فما يزرعه فيها سوف يفلحه في الحياة اللاحقة. وبذلك يمكن له أخيراً أن يحقق (ذاته الجبّارة) التي هي الهدف الأسمى للوجود الإنساني.

ونفهم من نص (المحبة) أن هذه (الذات الجبّارة) هي نقيضة (الذات الضعيفة). فالذات الضعيفة هي التي تجوع وتعطش، وتستهويها الرغائب، وهي التي تموت وتفنى في كل دورة من دورات الحياة. أما (الذات الجبّارة) فهي الخالدة لأنها لا تشرب إلا من قدح ملأته المحبة، أو كأس باركتها. وإذا كانت الذات الضعيفة تملأ الإنسان بفقاقيع

الغرور (نص الملك الناسك)، فإن الذات الجبّارة تحثه على استبدال المملكة الزائلة بغابة تترنّم فيها الفصول، ليفهم أسرار الغبراء وينظر إلى الحق عارياً، ويتأمّل الجمال سافراً. فالذات الجبّارة تجعل من المولود ملكاً دون مملكة، ومن الرجل المسود بجسمه سائداً بروحه. إنها الذات التي تطل من أعماقنا (كما في نص الذات العظمى) لتذكرنا بتفاهة المكاسب التي نحققها في حياتنا المادية، فلو كان الملك أكثر نبلاً وأشد بأساً وأوفر حكمة، لما اختار أن يكون ملكاً في حياة لن يلبث أن يغادرها سريعاً إلى حياة أخرى!.

وفي نص (طائر إيماني) نرى (ذات الإنسان الفضلى) تزداد كبراً كلما ارتقت من حال إلى حال. ففي كل دورة حياتية تكتسب المزيد من المعرفة الجامحة القديرة التي تجعلها تتحرر من قيود اللحم والعظم، وتنبثق محلقة في عالم اللاحدود حتى ترتسم على أديم السماء.

أما في نص (وراء وحدتي)، فنجد ذات الإنسان السجينة في الجسد الذي حلّت فيه في إحدى حيواتها، تعي أن وراء وحدتها في هذه الحياة، وحدة أبعد وأقصى، وهي تتوق إلى تلك الوحدة العلْوية المقدسة. وتدرك أن لا سبيل إلى ذلك إلا بالتسامي على أشياء الواقع المادية وتجاوز رغائبه وظلاله ، مما يستوجب التخلّص من جميع الذوات المستعبدة التي يتجلى فيها الإنسان خلال دورات حياته المتعاقبة، كما لا يمكن للفرد بلوغ ذاته الحرة الطليقة قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء. فلا بد أن تذوي الجذور التي تتشبث بظلام الأرض قبل أن تطير الأوراق مترنمة في الريح، ولا بد للفراخ أن

تترك عشّها قبل أن يحلّق نسر الروح أمام وجه الشمس، وجه الحقيقة المطلقة، أو وجه الروح الكلي الخالد.

وفي النص الأخير من الكتاب، الذي وضع له جبران عنوان (اليقظة الأخيرة) نرى (السابق) بعد أن عبر دورات حياته المتعاقبة، وتخلص من ذواته المستعبدة فيها، واغتنت ذاته الجبّارة بما اكتشفته من معارف وأسرار، وما اكتنزته من تجارب وخبرات، فإذا به ينهض في يقظته الأخيرة، ليمشي مطلقاً عارياً، ويخاطب أرواح النائمين المستيقظة، معلناً الحقيقة العظيمة التي تجلّت له، وهي المحبة. فلا أساس لهذا العالم سوى المحبة، ولا جوهر لهذا الوجود سواها. والمحبّة واحدة لا تتجزأ، فهي تشمل الجميع كما لو كانوا واحداً، وتشمل الواحد كما لو كان الجميع، وتشمل القوي والضعيف، والمريض والسليم، والغني والفقير، والمبدع والمقلد، والمؤمن والكافر، والخيّر والشرير. وإذا كان الناس لا يقوون على شرب المحبة من النهر الفيّاض، فإن في وسعهم أن يرتشفوها من القدح الصغير،لذلك كان لا بد له ، لحاجته إلى قربه من الناس، أن يتظاهر بالجفاء، وخوفاً منه على دنو قضاء محبتهم، راح يقوم على حراسة سدود محبته. إلا أنه يدرك في قلبه أن المحبة المحتقرة في عريها لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تسترها وتنكرها، لذلك يخجل من ذاته، ويرفع رأسه، باسطاً ذراعيه ومعلناً أن الليل قد ولى، وعندما يأتي الفجر فلا بد لنا، نحن أولاد الليل، أن نموت، كي تنبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا، محبة تضحك في نور

الشمس، وتكون خالدة مثل خلودها ، ومثل خلود الحقيقة المطلقة، وخلود الذات الجبّارة العظمى.

وبتبشيره بالمحبة الخالدة، يختتم جبران كتابه (السابق) ليمهّد لظهور نبيه الذي ستكون (المحبّة) جوهر نبوءته، في الكتاب الذي يعتبره الجميع أكثر كتب جبران أهمية، كتاب (النبي).

د. نزار بريك هنيدي

دمشق 2 / 12 /2002

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (10)

السابق

THE FORERUNNER

BY KAHLIL GIBRAN

(1920)

أنت سابق نفسك

أنت سابق نفسك يا صاح، وما الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبارة. وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها.

وأنا مثلك سابقٌ نفسي، لأن الظل المنبسط أمامي عند شروق الشمس سيتقلص تحت قدمي عند الظهيرة. وسيعقب هذا الشروق شروقٌ آخر، فيحدث ظلاً ثانياً أمامي، ولكن هذا الظل عينه سيتقلص تحت قدمي أيضاً في ظهيرة أخرى.

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الأبد. وليس ما حشدنا ونحشدُ في حياتنا سوى بذور نعدها لحقول لم تفلح بعد. نحن الحقول ونحن الزارعون. نحن الأثمار ونحن المستثمرون.

عندما كنت يا صاح فكرةً هائمة في الضباب كنتُ هنالك فكرة هائمة مثلك، فنشدتك ونشدتني، فكانت من تشوقاتنا الأحلام، والأحلام كانت زماناً بلا قيود والأحلام كانت فضاء بلا حدود.

وعندما كنت كلمة صامتة بين شفتي الحياة المرتعشتين، كنت

أنا مثلك هنالك كلمة صامتة، وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا إلى الوجود وقلبانا يخفقان بتذكارات الأمس والحنين إلى الغد. وما الأمس سوى الموت مطروداً ولا الغد سوى الميلاد مقصوداً.

وها نحن الآن في يدي الله، فأنت شمسٌ منيرةٌ في يمناه، وأنا أرض مستنيرة في يسراه، ولكن قوتك على الإنارة ليس بأفضل من قوتي على الاستنارة.

وما نحن، الشمس والأرض، إلا بداءة لشمس أعظم وأرض أعظم، وسنبقى بداءة إلى الأبد.

أنت سابق نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي، وأنا مثلك سابق نفسي، ولو كنت أجلس في ظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً.

البهلول

جاء في قديم الزمان رجل من البادية إلى مدينة الشريعة العظيمة، وكان بهلولاً خيالياً، ولم يكن له من متاع سوى ثوبه وعصاه.

فكان يطوف في شوارع المدينة ويتأمل هياكلها وأبراجها وقصورها بإعجاب وإجلال، لأن مدينة الشريعة كانت غاية في الجمال. وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً عن مدينتهم وغرائبها، فلم يفهموا لغته كما أنَّه لم يفهم لغة أحد منهم.

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح الأرجاء، بديع الهندسة، والإتقان، وكان الناس يدخلون إليه ويخرجون منه من غير اعتراض.

فقال البهلول في ذاته: لا شك أن هذا مزار مقدس.

ودخل مع الداخلين.

وشدّ ما كانت حيرته عندما وجد نفسه في بهوٍ عظيم، وكبراء القوم، من رجال ونساء، جالسون إلى كثير من الموائد الأنيقة، يأكلون ويشربون، والموسيقيون يشنفون آذانهم بأطرب العزف والغناء.

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته: قد ضللت، فما هذه بالعبادة التي توهمت، بل هذه مأدبة أعدها الأمير لشعبه تذكاراً لحادث جلل.

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجل، خيل إليه أنه عبد الأمير وسأله أن يجلس مع الجالسين، فجلس. فقدمت إليه اللحوم، والخمور، والحلوى أفخرها وأشهاها، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً.

وعندما بلغ كفافه هم بالإنصراف، ولكنه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجل بادنٌ متأنق اللباس فأوقفه.

فقال البهلول في نفسه: لاشك أن هذا هو الأمير بعينه. فانحنى أمامه وحياه باحترام وشكره بلغة قبيلته.

أما الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة، قائلاً له: يا سيدي إنك لم تدفع بعد ثمن غدائك.

فلم يفهم البهلول شيئاً، ولكنه شكره ثانية من صميم قلبه. فتأمله الرجل البادن جيداً، وبعد أن أنعم النظر في وجهه ملياً، أدرك أنه غريب عن المدينة، وعرف من ثيابه الرثة أنه فقير الحال وليس له ما يدفعه ثمن غدائه، فصفق منادياً، فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه، فقص عليهم قصة البهلول، فألقوا القبض عليه في الحال، ومشوا به اثنين اثنين إلى جانبيه، أما البهلول فكان يتأمل ملابسهم المزركشة، وهو يكاد يطير فرحاً، قائلاً في سره: لا شك في أن هؤلاء من أشراف المدينة.

فسار الحراس به إلى أن بلغوا دار القضاء، فدخلوا إلى قاعة المحاكمة، فرأى البهلول أمامه، في صدر تلك القاعة، رجلاً جليلاً، جالساً على منصة عالية، تجلله المهابة وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبة ووقاراً. فخُيل إليه أنه الملك بعينه، وطارت نفسه فرحاً لمثوله أمامه.

ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضي، فعين القاضي محاميين، واحداً ليدعي على البهلول، وآخر ليتولى الدفاع عنه. فنهض المحاميان الواحد تلو الآخر وأدلى كل بحججه.

أما البهلول فظن أنهما يرحبان به باسم الملك، فامتلأ قلبه بعواطف المنة ومعرفة الجميل للملك، وللأمير، على كل ما جرى له.

وعند انتهاء المحاكمة حكم القاضي بما يأتي على البهلول: يجب أن تكتب جريمته على لوحة، وتعلق على صدره، ثم يركب حصاناً عارياً، ويطاف به في المدينة، ويسير المزمرون والمطبلون أمامه.

فنُفذ الحكم في الحال، وأركب البهلول حصاناً عارياً وطيف به في شوارع المدينة، وسار المزمرون والمطبلون أمامه. وكان سكان المدينة يتراكضون على سماع الأصوات فينظرون إليه وهو على تلك الحالة، ويغربون في الضحك أفراداً وجماعات. وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات.

أما البهلول فكان ينظر إليهم بعينين مشرقتين فرحاً والدهش آخذ منه مأخذه. لأنه كان يعتقد أن اللوحة المعلقة على صدره إنما هي

وسام قدمه له الملك عربون بركته ورضاه عن زيارته، وإن ذلك الموكب ما سار إلا احتفاء بحضرته.

وحدث أنه فيما هو راكب والجمع يحشده، رأى بينهم بدوياً من قبيلته، فاختلج قلبه طرباً، وهتف به بأعلى صوته قائلاً: بربك يا صاح! أين نحن الآن؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا مدينة رغائب القلب، وشعبها الأريحيون الفياضون، الذين يحتفون بعابر السبيل في قصورهم، ويرافقه أمراؤهم، ويشرّف ملكهم صدره بالنياشين فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من السماء؟.

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط، ولكنه تبسم وهزّ رأسه.

أما الموكب فاستمر في سيره. وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً والنور يفيض من عينيه.

المحبة

يقولون إن ابن آوى يشرب من الجدول الواحد الذي يشرب منه الأسد.

ويقولون إن النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متفقان متسالمان.

فيا أيتها المحبة العادلة.

يا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة،

وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباءٍ وشمم،

لا تأذني للقوي العزوم في أن يأكل الخبز، أو يشرب الخمر، اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة.

ذريني بالأحرى فأقضي جوعاً، بل دعي قلبي يتلهب عطشاً.

واتركيني أموت وأفنى، قبل أن أمد يدي لقدح لم تملأيه أو كأس لم تباركيها.

الملك الناسك

خُبرت أن فتى يعيش في غابة بين الجبال، وأنه كان فيما مضى ملكاً على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين. وقيل لي أيضاً إن هذا الفتى قد تخلى، بملء اختياره، عن عرشه وعن أرض أمجاده، وجاء ليستوطن القفار.

فقلت في نفسي: لأسعين إلى ذلك الرجل سعياً، وأقف على ما في قلبه من الأسرار، لأن من يتنزل عن الملك فهو بلا شك أعظم من المُلك!!

فذهبت على الفور إلى الغابة حيثما كان قاطناً. فوجدته جالساً في ظلال سروة بيضاء، وبيده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي صولجانه. فحييته تحية الملوك، وبعد أن ردّ التحية التفت إلي وقال بلطف: ما عساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي؟ أجئت تنشد ذاتاً ضائعة في الظلال الخضراء. أم هي عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار؟.

فأجبته قائلاً: إنني ما نشدت إلاك، ولا شاقني إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة!.

فقال: وجيزة هي قصتي، فقد انطفأت فقاقيع غروري فجأة. وإليك حكايتي:

بينما كنت جالساً إلى نافذة في قصري، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي. وعندما صارا على مقربة من نافذتي سمعت الوزير يتكلم عن نفسه قائلاً: أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة، وأعشق جميع ضروب المقامرة، ويثور بي ثائر الغضب كسيدي الملك. ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار. ولكنهما ما لبثا أن عادا بعد برهة، وإذا بالوزير يتكلم عني في هذه المرة قائلاً: إن سيدي الملك مثلي يحسن الرماية، ويتعشق الألحان، وهو مثلي يستحم ثلاثاً في النهار.

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً: في عشية ذلك اليوم تركت بلاطي، ولا شيء معي سوى عباءتي، لأني لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدعون نقائصي لأنفسهم ويعزون فضائلهم إليَّ.

فقلت له: ما أغرب قصتك، وما أعجب أمرك!.

فأجابني قائلاً: ليس هنالك من غرابة يا صاحبي، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعاً منها بالكثير، فلم يكن لك منها سوى اليسير. بربك قل لي: من لا يستبدل مملكة بغابة تترنم فيها الفصول، وترقص طروباً أبداً؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوا بها أدنى مراتب الوحدة والتمتع بحياة العزلة السعيدة، وكم هنالك من نسور هبطت من جوها الأعلى، لتعيش مع المناجذ في أنفاقها الصامتة فتتفهم

أسرار الغبراء! بل ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لئلا يظهروا للناس أنهم بعيدون عمن لا أحلام في نفوسهم، والذين يعتزلون مملكة العري، ساترين عرية نفوسهم حتى لا يستحي الأحرار من النظر إلى الحق عارياً والتأمل بالجمال سافراً. وأعظم من هؤلاء جميعهم ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن. لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته.

ثم نهض متوكئاً على قصبته وقال: ارجع الآن إلى المدينة العظمى، وقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين إليها والخارجين منها. واعن بأن تجد الرجل الذي على رغم أنه ولد ملكاً فهو بدون مملكة. والرجل الذي على رغم أنه مسودٌ بجسده فهو سائد بروحه، ولكنه لا يدري بذلك ولا رعاياه يدرون بسيادته. والرجل الذي يبدو للعيان حاكماً ولكنه في الحقيقة عبد لعبيد عبيده.

وبعد أن فرغ من كلامه نظر إلي، فلاحت لي منه ابتسامة خلتها ألف فجر وفجر.

ثم تحول عني متغلغلاً في قلب الغابة.

أما أنا فرجعت إلى المدينة، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي، على نحو ما قال لي. وما أكثر الملوك الذين مرت ظلالهم فوقي، منذ ذلك اليوم حتى الساعة، وأقل الرعايا الذين مر فوقهم ظلي!.

الظلم مرتعه وخيم

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة:

سيأتي قريني راكباً على الأمواج،

وسيملأ الأرض رعباً بهديره العجاج،

وستندلع نيران منخريه في أقاصي الفضاء،

عند خسوف القمر سأزف إليه،

وعند كسوف الشمس سألد جورجيوس آخر فيذبحني.

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة.

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروحون بمراوحهم لملكة حيزبون كانت نائمة على عرشها تغط غطيطاً غليظاً. وكان في حضن الملكة هرةٌ متكئة تموء وهي تنظر إلى العبيد نظرة كره واشمئزاز.

فقال العبد الأول لرفقائه: ما أبشع هذه الحيزبون نائمة! انظروا كيف تراخت شفتاها، وهي تصعد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها.

فماءت الهرة قائلة: إن بشاعتها في رقدتها ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم وأنتم مستيقظون.

ثم قال العبد الثاني: ومن الغريب أن النوم لم يلطف ملامح وجهها، بل زادها تجعداً، فهي ولا شك حالمة حلماً شريراً راعباً.

فماءت الهرة قائلة لهم: حبذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم!.

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً: يلوح لي أنها ترى في منامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظلماً وعدواناً.

فمـاءت الـهرة قائلـة: نعـم، فـهي تـرى مواكـب أجدادكـم وحفدتكم.

ثم قال العبد الرابع: ما أغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة، وماذا يجديكم الحديث نفعاً أو يجديني؟ ألعله يخفف عني نصيبي في وقوفي وعنائي في ترويحي لها؟.

فقالت الهرة وهي تموء: أجل، إنكم ستروحون إلى دهر الداهرين، لأنه كما على الأرض كذلك في السماء.

وفي تلك اللحظة تحركت الملكة في نومها فسقط تاجها على الأرض فقال واحدٌ من العبيد: إن في ذلك لشؤماً!.

فماءت الهرة وقالت: مصائب قوم عند قوم فوائد.

فقال العبد الثاني: ماذا يحل بنا إذا أفاقت الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الأرض؟ والله إنها تذبحنا جميعنا!.

فماءت الهرة قائلة: قد كانت تذبحكم منذ ميلادكم أيها الأغبياء وأنتم لا تعلمون.

وقال العبد الثالث: إنها ولا شك تذبحنا، وتعتبر أنها بعملها هذا إنما تقرب عبادة لآلهتها.

فماءت الهرة قائلة: لا يُضحى للآلهة إلا الضعفاء.

أما العبد الرابع فأسكت رفقاءه عن الكلام، والتقط التاج بتأن ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها.

فماءت الهرة وقالت بصوت عال: الحق أقول لكم إنه لا يلتقط التيجان المتدحرجة سوى العبيد.

وبعد هنيهة استيقظت الملكة، وتلفتت حواليها متثائبة ثم قالت لعبيدها: يخيل إلي أني حلمت بأني رأيت أربع حشرات يطاردها عقرب حول جذع سنديانة جبارة. قبحه الله من حلم مزعج!.

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد أن ملأت القاعة بغطيطها، فطفق العبيد الأربعة يروحون لها على جاري عادتهم.

أما الهرة فماءت قائلة: روحوا، روحوا أيها العميان والأغبياء، فأنتم لا تروحون إلا ناراً تلتهم وجودكم!.

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة، القائمة بين التلال، وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة أطل علينا لص وهو يتعرج على الجانبين فوق الروابي، والتعب قد أعياه. وعندما وصل إلى الصومعة جثا على ركبتيه أمام القديس وقال له: أيها القديس الشفيق قد جئتك طالباً تعزية، فإن آثامي قد تعالت فوق رأسي.

فأجابه القديس قائلاً: يا ابني، إن آثامي أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسي.

فقال له اللص عفوك يا سيدي! فأنا سارق، وقاطع طريق، ويستحيل أن تكون مثلي.

فأجابه القديس: إنك واهمٌ يا ابني، فأنني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق.

فقال له اللص: ماذا تقول يا سيدي؟ فأنا قاتل ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في أذني.

فأجابه القديس قائلاً: وأنا أيضاً قاتل يا ابني، وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين.

فقال له اللص: يا سيدي أنا قد ارتكبت شروراً لا تحصى، وجرائم لا عداد لها، فكيف تساوي نفسك بي وأنت رجل الله البار؟.

فأجابه القديس وقال: لو أنك عرفت كثرة شروري لما ذكرت شرورك.

فانتصب اللص إذ ذاك وحدق إلى القديس طويلاً، وملء عينيه دهشة وغرابة، ومضى من غير أن ينبس ببنت شفة.

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة. فالتفت آنئذٍ إلى القديس، وسألته قائلاً: ما دعاك إلى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي؟ ألا ترى أن هذا الرجل قد مضى ولم يعد من المصدقين بدعوتك، والمؤمنين ببشارتك؟.

فأجاب القديس وقال: أجل يا بني. فإنك بالصواب حكمت، بأنه لم يعد من المصدقين بدعوتي، ولكن الحق أقول لك إنه قد انصرف والعزاء يملأ فؤاده.

وفي تلك اللحظة سمعنا اللص يغني من بعيد، وكانت الأودية تردد صدى صوته الممتلىء بالمسرة والتعزية.

الطمع

رأيت في جولاتي في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء له رأس بشري، وحوافر من حديد.

وكان يأكل من الأرض ويشرب من البحر بلا انقطاع. فوقفت أراقبه ردحاً، ثم دنوت منه وسألته قائلاً: ألم تبلغ كفافك بعد؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمإك من ارتواء؟.

فأجابني وقال: نعم، نعم قد بلغت كفافي بل قد مللت الأكل والشرب ولكنني أخاف أن لا تبقى إلى غد أرض لآكل منها وبحر لأرتوي من مائه.

الذات العظمى

حدث بعد تتويج نُفسيبعل، ملك جبيل، أنه انصرف إلى مقصورته، وهي الغرفة التي بناها له عرافوا الجبل النساك، فنزع تاجه، وخلع برفيره ووقف في وسط المقصورة، مفكراً في عظمته المتناهية، كملك جبيل الواسع السلطان في ذلك الزمان.

وكان في صدر تلك المقصورة مرآة مفضضة الإطار، أهدتها إليه أمه، فالتفت إليها بغتة، وإذا برجل عارٍ قد خرج منها وتقدم إليه.

فأخذ الرعب بمجامع قلبه وصرخ بالرجل قائلاً: ماذا تريد أيها الرجل؟.

فأجابه الرجل وقال: أود شيئاً واحداً أيها الملك، وهو أن تخبرني لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد؟.

فقال له الملك: قد توجوني مليكاً عليهم لأنني أنبل رجل بينهم.

فقال له الرجل: والله لو كنت أنبل مما أنت لما قبلت الملك.

فأجابه الملك: بل إنما توجوني لأنني أشدهم بأساً وقدرة.

فقال له الرجل: لو كنت بالحقيقة أشدهم بأساً لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم.

فقال له الملك: ألا إنما توجني شعبي لأنني أوفرهم حكمة.

فأجابه الرجل قائلاً: والله لو كنت أوفر حكمة مما أنت الآن لما اخترت أن تكون ملكاً.

فسقط الملك حينئذٍ على الأرض وبكى بكاءً مراً. أما الرجل العاري فكان ينظر إليه بشفقة وحنان آسفاً على جهله وغروره. ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ووضعه بلطف على رأسه المنحني، وعاد فدخل في المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة وحسرة.

أما الملك فنهض بغتة إلى المرآة، وتأملها جيداً فلم ير هنالك أحداً إلاه وتاجه على رأسه.

الحرب والأمم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحمل يرعيان. وكان فوقهما في الجو نسرٌ يحوم ناظراً إلى الحمل بعين جائعة يبغي افتراسه. وبينما هو يهم بالهبوط لاقتناص فريسته، جاء نسر آخر وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله.

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشي أطراف الفضاء.

فرفعت النعجة نظرها إليهما منذهلة، والتفتت إلى حملها وقالت له:

تأمل يا ولدي، ما أغرب قتال هذين الطائرين الكريمين! أوليس من العار عليهما أن يتقاتلا، وهذا الجو الواسع كافٍ لكليهما ليعيشا متسالمين؟ ولكن صل يا صغيري، صل في قلبك إلى الله، لكي يرسل سلاماً إلى أخويك المجنحين!.

فصلى الحمل من أعماق قلبه!.

الناقدون

في عشية أحد الأيام كان المسافر راكباً حصانه وسائراً إلى الساحل، فوصل في طريقه إلى فندق. فترجل وربط حصانه إلى شجرة أمام الباب، لأنه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين إلى السواحل، ثم دخل إلى الفندق مع الداخلين.

وعند انتصاف الليل كان جميع من في الفندق نياماً، فجاء لص وسرق حصان المسافر فلم يدرِ به أحد.

وفي الصباح نهض المسافر من نومه، وجاء على الفور إلى حيث ربط حصانه فلم يجده. وبعد أن فتش عنه جيداً عرف أن لصاً سرقه في تلك الليلة، فتأثر كثيراً على فقد حصانه، ولكنه حزن بالأكثر على أن بين الناس من يغريه الشر فيعمد إلى السرقة.

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بما جرى له، تجمعوا حواليه، وبدأوا ينحون عليه باللائمة معنفين إياه.

فقال الأول: ما أحمقك أيها الرجل! لماذا ربطت حصانك خارج الاصطبل؟

ثم قال له الثاني: إنني أستغرب كيف أنك لم تحجل (تقيد) الحصان عندما ربطته. فما أوفر جهلك؟.

فقال الثالث لرفيقيه: إن السفر إلى البحر على ظهور الخيول غباوةٌ من أساسه.

وقال الرابع: أما أنا فأعتقد أنه لا يقتني الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى.

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والإرشاد بعد فوات الأوان. ثم قال لهم وهو يتميز غيظاً:

أيها الأصحاب. عندما سرق حصاني جاءتكم الفصاحة عفواً، فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعددون هفواتي وزلاتي، ولكن يدهشني كيف أنكم، مع ما أوتيتم من قوة البيان، لم يقل أحد منكم كلمة عمن سرق الحصان!.

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خوان، وكان على الخوان إناء من الخمر.

فقال الشاعر الأول: يخيل إليّ أني أرى عبير هذا الخمر مرفرفاً في الفضاء، كسحابة من الطيور في غاب مسحور.

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال: أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة هذه الطيور تغرد فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وريقاتها.

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعه وقال: أما أنا فإني أكاد ألامسها بيدي، وأشعر بحفيف أجنحتها يهب في وجهي كأنه لهاثُ جنية نائمة.

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك، ورفع الإناء بيديه وقال: عفوكم أيها الاخوان! فإني ضعيف البصر، ثقيل السمع، كليل اللمس، فليس في طاقتي أن أرى عبير هذه الخمرة، ولا أن أسمع غناءها، ولا أن أشعر برفرفة أجنحتها. أواه! إنني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها، ولذلك يجب أن

أشربها لتوقظ حواسي الخاملة، وتشعل روحي بنار بركتكم العلوية ووحيكم الطهور.

ثم وضع إناء الخمر على شفتيه وأتى على آخر نقطة فيه.

أما الشعراء الثلاثة رفقاؤه، فكانوا ينظرون إليه بدهشة، فاتحين أشداقهم، وفي عيونهم غُلَّةٌ لا تُرى لهبتها وبغضة لا تخمد حدتها.

دوارة الريح

قالت دوارة الريح للريح: قبحك الله، ما أثقلك وما أملّك! أليس في وسعك أن تهبي في وجه غير وجهي؟ ألا تعلمين أنك بعملك هذا إنما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه الله؟.

فلم تجب الريح بكلمة قط، ولكنها ضحكت في الفضاء.

ملك أردوسة

مَثُل شيوخ مدينة أردوسة مرة في حضرة الملك، والتمسوا منه أمراً يقضي بمنع المسكرات في مدينتهم.

فلم يجب الملك سؤلهم، بل ولاهم ظهره وتركهم ومضى، ضاحكاً منهم في سره.

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين.

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك. وكان هذا الوزير داهية، فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم.

فقال لهم: أواه أيها الأصحاب! فإن الحظ لم يسعدكم، لأنكم لو أتيتم إلينا عندما يكون ملكنا سكران لكنتم حصلتم في الحال على ما طلبتم!.

طائر إيماني

من أعماق قلبي هب طائرٌ، وصعد محلقاً في الفضاء، وكان كلما حلق في الجو، أكثر فأكثر، يزداد كبراً فكبراً. فبدا أولاً كالخطاف، ثم صار كالقبرة، فكالنسر، إلى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعاً، فملأ السماوات المرصعة بالنجوم.

من أعماق قلبي هب طائر، وحلق في الفضاء وكان يزداد حجمه كلما طار.

ومع ذلك فإنه ظل ساكناً في أعماق قلبي.

فيا إيماني، يا معرفتي الجامحة القديرة.

كيف أبلغ سموك، فأرى وإياك ذات الإنسان الفضلى المرسومة على أديم السماء؟

كيف أحول هذا البحر الذي في أعماق نفسي، إلى ضباب كثيف، وأهيم وإياك في فضاء اللا نهاية؟.

أو هل يستطيع السجين في ظلمات الهيكل أن يرى قباب الهيكل المذهبة؟.

أم هل للنواة أن تتمدد فتغلف الثمر كما كان يغلفها من ذي قبل؟

أجل يا إيماني الحليم! أجل، فإني مقيد بالسلاسل الحديدية في غيابات هذا السجن المحدود، تفصلني عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم، وليس لي أن أطير معك الآن إلى عالم اللا حدود.

بيد أنك من قلبي تنبثق محلقاً في الفضاء الوسيع، وأنت لا تزال قاطناً في أعماق قلبي الوجيع، وإني بذلك لراضٍ مستسلم قنوع.

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة عيشانا في فراش مخاضها والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة، وهم جالسون على أحر من الجمر في قاعة الثيران المجنحة[1]، أن دخل عليهم فجأة رسول مستعجل، وركع عند قدمي الملك وقال: أيها الملك العظيم، إنني أحمل لكم بشائر الفرح، وللملكة، ولعبيد الملك أجمعين، وذلك أن محراب الجائر عدوك اللدود، ملك البترون، قضى نحبه.

فلما سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى نهضوا منتصبين على أقدامهم، وهللوا فرحين. لأنه لو طال أجل محراب الجبار سنة واحدة، لغزا أرض عيشانا وقاد سكانها عبيداً إلى بلاده.

وفي تلك اللحظة دخل طبيب البلاط إلى قاعة الثيران المجنحة، ودخلت وراءه قابلة الملكة. فانحنى الطبيب احتراماً للملك وقال له: ليعش سيدي الملك إلى الأبد، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً، سيخلفك على العرش، ويخلد حكمك على شعوب عيشانا عديد السنين!.

---

(1) كان عند قدماء الآشوريين إله له رأس إنسان وجسم ثور وأجنحة طائر، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر، وبجسمه عن العزم، وبأجنحته عن الخيال. وهذا ما عناه المؤلف بقوله قاعة الثيران المجنحة.

فتهلل الملك، وطارت روحه فرحاً، لأنه في اللحظة الواحدة هلك عدوه، وتأصلت الخلافة في نسله.

وكان في مدينة عيشانا في ذلك العهد نبي حقّ، ولكنه كان فتى جريئاً باسل الروح.

فأمر الملك أن يُحضر النبي بين يديه في تلك الليلة، فأحضر في الحال.

فقال له الملك: تنبأ أيها النبي، وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابني الذي وُلد الآن للمملكة.

فأجابه النبي على الفور قائلاً: اصغ أيها الملك فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذي وُلد لك اليوم: فإن روح عدوك - عدوك اللدود الملك محراب - الذي مات في مساء الأمس، لم تلبث على متن الأرياح سوى ليلة واحدة وقد هبطت إلى الأرض ثانية تطلب جسداً تأوي إليه، فلم تر أفضل من جسد ابنك هذا الذي وُلد لك اليوم فتقمصته.

فاستشاط الملك غيظاً، وأستل سيفه، وقطع رأس النبي بيده والزبد يخرج من فمه غضباً.

وها قد مرت الأيام، وتصرمت حبال السنين على تلك الحادثة، وحكماء عيشانا يُسرون واحدهم للآخر قائلين: أما قيل لنا في القدم، وأثبتت الأيام ذلك القول، إن عيشانا يحكمها عدوها؟.

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير. فجاءت موجة هوجاء واختطفت القرمة إلى وسط النهر، فحملتها المياه وسارت بها ببطء مع مجرى النهر. فرقصت الضفادع فرحاً بهذه السباحة اللطيفة فوق المياه، لأنه لم يسبق لهن أن أبحرن بعيداً من ذي قبل.

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلة: يا لها من قرمة عجيبة غريبة! تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الأحياء. والله إنني لم أسمع قط بمثلها.

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت: إن هذه القرمة لا تمشي، ولا تتحرك أيتها الصديقة، وهي ليست عجيبة غريبة كما توهمت، ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها إلى البحر تحمل معها هذه القرمة معها وتحملنا نحن أيضاً بانحدارها.

فقالت الضفدعة الثالثة: لا لعمري، فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب، فإن القرمة لا تتحرك والنهر أيضاً لا يتحرك، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا، وهو الذي يقودنا إلى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة.

وتناظرت الضفادع الثلاث في ما هو متحرك بالحقيقة. وحمي وطيس الجدال وعلا الصراخ بينهن ولم يتفقن على رأي واحد.

ثم التفتن إلى الضفدعة الرابعة التي كانت إلى تلك الساعة هادئة صامتة تصغي إليهن بانتباه واستيعاب، وسألنها رأيها في الموضوع.

فقالت لهن: كلكن محقات أيتها الرفيقات، ولا واحدة منكن على ضلال. فإن الحركة كائنة في القرمة وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد.

فلم يرقهن ذلك الكلام، لأن كل واحدة منهن كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن رفيقاتها لفي ضلال مبين.

وما أغرب ما حدث بعد ذلك! فإن الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء، وتجمعن فرمين بالضفدعة الرابعة من على القرمة إلى النهر.

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج: قد بُرئت نقية طاهرة وسأظل نقية إلى الأبد. وإنني لأوثر أن أحرق وأتحول إلى رماد أبيض، على أن آذن للظلمة فتدنو مني وللأقذار فتلامسني.

فسمعت قنينة الحبر قولها وضحكت في قلبها القاتم المظلم ولكنها خافت ولم تدنُ منها.

وسمعتها الأقلام أيضاً على اختلاف ألوانها ولم تقربها قط.

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج ـ نقية طاهرة ـ ولكن.. فارغة.

العالم والشاعر

قالت الحية للحسون: ما أجمل طيرانك أيها الحسون! ولكن حبذا لو أنك تستطيع أن تتسل إلى ثقوب الأرض وأوكارها. حيث تختلج عصارة الحياة في هدوء وسكون!.

فأجابها الحسون وقال: أي وربي! إنك واسعة المعرفة بعيدتها، بل أنت أحكم جميع المخلوقات، ولكن حبذا لو أنك تطيرين.

فقالت الحية كأنها لم تسمع شيئاً: مسكين أنت أيها الحسون! فإنك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلي، ولا تقدر أن تتخطر في خزائن الممالك الخفية، فترى أسرارها ومحتوياتها. أما أنا فلا أبعد بك، فقد كنت في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر أشبه بقلب رمانة ناضجة، وأضأل الأشعة تحولها إلى وردة من نور. فمن أعطي سواي في هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب؟.

فقال لها الحسون: بالصواب قد حكمتِ أيتها الحكيمة، فلا أحد إلاكِ يستطيع أن يفترش ما تبلور من تذكارات العصور، وآثار الدهور. ولكن واأسفاه، فإنك لا تغردين!.

فقالت الحية: إنني أعرف نباتاً تمتد جذوره إلى أحشاء الأرض، وكل من يأكل من تلك الجذور يصير أجمل من عشتروت.

فأجابها الحسون قائلاً: لا أحد، لا أحد إلاكِ قد اهتدى إلى حسر القناع عن فكر الأرض السحري. ولكن واأسفاه، فإنك لا تطيرين!.

فقالت الحية: وأعرف جدولاً أرجوانياً يجري تحت جبل عظيم، وكل من يشرب من هذا الجدول يصير خالداً خلود الآلهة. وليس بين الطير أو الحيوان من اهتدى إلى ذلك الجدول سواي.

فأجاب الحسون وقال: بلى والله. فإن في منالك أن تكوني خالدة مثل الآلهة لو شئت. ولكن وااسفاه، فإنك لا تغردين!.

فقالت الحية: وأعرف هيكلاً مطموراً تحت تراب الأرض، لم يهتد إليه باحثٌ أو منقبٌ بعد، أزوره مرة في الشهر، وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة. وقد نُقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة، وكل من يقرأها ويفهمها يوازي الآلهة في العقل والمعرفة.

فأجابها الحسون قائلاً: بلى أيتها الحكيمة العزيزة، فإنك لو شئت لاستطعت أن تكتنفي بلين جسدك جميع معارف الأجيال. ولكنك وا أسفاه، لا تقدرين أن تطيري!ط.

فاشمأزت الحية إذ ذاك من حديثه، وارتدت عنه إلى وكرها، وهي تبربر في ذاتها قائلة: قبحه الله من غريد فارغ الرأس!.

أما الحسون فطار وهو يغني بأعلى صوته قائلاً: وا أسفاه، إنك لا تغردين! وا اسفاه، وا اسفاه يا حكيمتي، فإنك لا تطيرين!.

الأثمان

كان رجل يحفر في حقله. وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل. فأخذه ومضى به إلى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديات وعرضه عليه. فاشتراه منه بأبهظ الأثمان. ومضى كل منهما في سبيله.

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته أخذ يفكر في ذاته قائلاً: ما أكثر ما في هذا المال من القوة والحياة! إنه بالحقيقة ليدهشني كيف أن رجلاً عاقلاً ينفق مالاً هذا مقداره لقاء صخر أصم فاقد الحركة، كان مدفوناً في الأرض منذ ألف سنة ولم يحلم به أحد.

وفي الساعة عينها كان المشتري يتأمل التمثال مفكراً وقائلاً في ذاته: تبارك ما فيك من الجمال! تبارك ما فيك من الحياة! حلم أية نفس علوية أنت؟ هذه بالحقيقة نضارةٌ أعطيتها من نوم ألف سنة في سكينة الأرض! إنني والله لا أفهم كيف يمكن الإنسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل.

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها: يوجد فوق بحرنا هذا بحرٌ آخر، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح.

فأجابتها أختها وقالت: تلك أوهام! تلك أوهام! ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد، ويبقى خارجاً عنه، يموت في الحال؟ إذن، فما هي حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى؟.

التوبة

دخل رجلٌ في ليلة ظلماء إلى حديقة جاره، فسرق أكبر بطيخة وصلت إليها يده وحملها وجاء بها إلى بيته.

وعندما كسرها وجد أنها عجراء لم تبلغ بعد نموها، فتحرك ضميره في داخله إذ ذاك، وأوسعه تونيباً، فندم على أنه سرق البطيخة.

المحتضر والشوحة

مهلاً ولا تلجي يا أختاه، مهلاً!

فعما قريب أترك لك هذه البقية التلفة.

فإنها تستفرغ صبرك بطول نزاعها.

إنني أضن بجوعك أن يترقب تصرم هذه الهنيهات، لأن هذه القيود وإن كانت من اللهاث، فإن كسرها لعسير. إن رغبتي في الموت، وهي أبعد رغائبي، مقيدة بسلاسل رغبتي في الحياة، وهي أدنى رغائبي.

عفوك أيتها الرفيقة، فإنني متماهلٌ بطيء.

هي الذكرى تمسك بروحي فتعيد إليها تذكارات مضت فتريها مواكب الأيام الذاهبة.

ومرأى شباب غابر قضيته في حلم.

وتشخص أمامي وجهاً يأمر أجفاني بألا تغمض.

وتعيد إلى مسمعي صوتاً لا يزال صداه متردداً في أذني، ويداً تلامس يدي ولا أراها.

عفوك أيتها الرفيقة، فقد طال انتظارك.

ولكن ها قد دنت الساعة وكل شيء عابر زائل: الوجه والعينان واليدان، والضباب الذي جاء بها.

ها قد حُلت العقدة.

قد تقطع الحبل.

وذلك الذي ليس بالطعام ولا بالشراب قد تنحى وراح.

تقدمي يا رفيقتي الجائعة، تقدمي فقد أعدت المائدة والطعام حقير يسير ولكنه يقدم بمحبة.

هلمي واغرزي منقارك في جنبي الأيسر.

وأخرجي من بين قضبان قفصه هذا الطائر الأصغر.

الذي لن يرفرف جناحاه فيما بعد.

بربك خذيه وحلقي به في رحاب الفضاء.

هلمي، هلمي إلي يا صديقتي،

فأنا مضيفك الليلة، وأنت ضيفي العزيز فأهلاً ومرحباً!.

وراء وحدتي

إن وراء وحدتي وحدة أبعد وأقصى.

وما انفرادي للمعتزل فيها سوى ساحة تغص بالمزدحمين.

وما سكوني للساكنين فيها سوى جلبة وضجيج.

إنني حدثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الوحدة القاصية؟

إنَّ ألحان ذلك الوادي تتموج في أذني،

وظلاله السوداء تحجب الطريق عن عيني،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟

إن وراء هذه الأودية والتلال غابة حب وافتتان،

وما سكوني لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صماء،

وما افتتاني لعاشقها سوى انخداع وغرور.

إنني حدثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية؟

فإن طعم الدماء لا يزال في فمي،

وقوس أبي ونشابه ما برحا في يدي،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟

إن لي وراء هذه الذات السجينة ذاتاً حرة طليقة،

وما أحلامي في عقيدتها سوى حرب في ظلام،

وما رغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة عظام.

إنني حدث مهان ذليل بعد،

فكيف أكون ذاتي الحرة الطليقة؟

أجل، كيف أكون ذاتي الحرة الطليقة -

قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبدة،

أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء؟

إذ كيف تطير أوراقي مترنمة فوق الريح -

قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض؟

بل كيف يحلق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس -

قبل أن تترك فراخي عشها الذي بنيته لها بعرق وجهي؟

اليقظة الأخيرة

في غلس الليل العميق، وقد هبَّ النسيم معطراً بأنفاس الفجر الأولى، نهض السابق - وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به أذنٌ بعد - فترك مقصورته وصعد إلى سطح بيته. وبعد أن وقف هنالك طويلاً ينظر إلى المدينة الهاجعة في سكينة الليل، رفع رأسه، وكأنما قد تجمعت حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة، وفتح فاه وخاطبهم قائلاً:

يا أخوتي وجيراني، ويا أيها المارون ببابي في كل يوم، إنني أودّ أن أناجيكم في نومكم، وفي وادي أحلامكم، أود أن أمشي مطلقاً عارياً، فإن ساعات يقظتكم أشد غفلة من نومكم، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صماء.

لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير.

لقد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم.

وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً.

ففي ربيع قلبي كنت أترنم في جنانكم.

وفي صيف قلبي كنت أحرس بيادركم.

أجـل، قـد أحببتكـم جميعكـم، جبـاركم وصعلوككـم، أبرصكم وصحيحكم، وأحببت من يتلمس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام.

أحببتـك أيـها القـوي، مـع أن آثـار حوافـرك الحديديـة لا تـزال ظاهرة في لحمي.

وأحببتك أيها الضعيف على رغم أنك جففت إيمـاني، وعطلت عليّ صبري.

أحببتك أيها الغني، في حين أن عسلك كان علقماً فـي فمـي. وأحببتك أيها الفقير مع أنك عرفت عوزي وفراغ ذات يدي.

أحببتك أيها الشاعر المقلد، الذي يستعير قيثارة جاره ليضـرب عليها بأصابعه العمياء، أحببتـك كرمـاً ولطفـاً. وأحببتـك أيـها العـالم الدائب عمره في جمع الأكفان الرثة من حقل الخزاف الممقوت.

أحببتك أيها الكاهن الجالس في سكون أمسه متسائلاً عـن مصير غده.

وأحببتـك أيـها العـابد الـذي يتخـذ لـه مـن أشـباح رغائبـه آلهـة يعبدها.

أحببتـك أيتـها المـرأة، المتعطشـة وكأسـها مملـوءة أبـداً، لأننـي عرفت سرك.

وأحببتك أيتها المرأة الساهرة لياليها، مشفقاً عليك.

أحببتك أيها الثرثار قائلاً في نفسي: إن للحياة كثيراً فتقوله. وأحببتك أيها الأبكم قائلاً في سري: حبذا لو أسمع نطقاً يعبر عما في صمته.

أحببتك أيها القاضي والناقد، ولكنكما عندما رأيتماني مصلوباً قلتما: ما ألطف نزف دمائه من عروقه، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع!.

أجل، أحببتكم جميعكم، فتاكم وشيخكم.

وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم الجبارة الراسخة.

ولكن وا أسفاه فإني قلبي الطافح بحبكم قد حول قلوبكم عني.

لأن في وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ولكنكم لا تقوون على شربها من النهر الفياض.

إنكم تستطيعون أن تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس في آذانكم.

ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة مهللة بأعلى صوتها.

وعندما رأيتم أنني قد أحببتكم جميعكم بالسوية. تهكمتم قائلين: ما أسهل انقياد قلبه، وما أبعد الفطنة عن مسالكه! إن محبته هذه محبة متسول جائع، قد تعود التقاط الفتات، ولو كان جالساً إلى

موائد الملوك، بل هي محبة ضعيف حقير، لأن القوى لا يحب إلا الأقوياء.

وعندما رأيتم أنني أحببتكم حباً مفرطاً قلتم: إن محبته هذه محبة أعمى لا يميز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر، بل هي محبة عديم الذوق، الذي يشرب الخل كأنه يشرب الخمر. بل إنما هي محبة فضولي مدعٍ، إذ أي غريب يستطيع أن يحبنا كأبينا وأمنا وأختنا وأخينا؟.

وهذه أقوالكم وغيرها كثير، لأنكم طالما أشرتم إليّ بأصابعكم في شوارع المدينة وساحاتها وقلتم بعضكم لبعض ساخرين:

بربكم انظروا الصغير الكبير، الذي لا يعبأ بالفصول والسنين، فهو عند الظهيرة يلاعب أولادنا، وعند المساء يجالس شيوخنا، مدعياً الحكمة والفهم.

أما أنا فكنت أقول في قلبي: لا بأس في ذلك، فإني سأحبهم أكثر فأكثر. ولكني سوف أسدل على محبتي ستاراً من البغض، وأستر عطفي بشديد كرهي. وسأتبرقع ببرقع من حديد، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحاً مدرعاً.

وبعد ذلك ألقيت يداً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم، وكما تعصف العاصفة في الليل رعدت في آذانكم.

ومن على السطوح قد أذعتكم للملأ فريسيين مرائين خداعين، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة.

لقد لعنت قاصري النظر فيكم كما تلعن الخفافيش العمياء.

شبهت الملتصقين بالأرض والأدنياء منكم بالمناجذ (جمع خلد) العادمة النفوس.

أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي الألسنة، ودعوت الصامت الساكن فيكم متحجر القلب والشفتين، وقلت في البسيط الساذج: إن الأموات لا يملون الموت.

قد حكمت على الساعين وراء المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجذفين على الروح القدس.

وحكمت أيضاً على المأخوذين والمجذوبين بحب الأرواح وما وراء الطبيعة كمصطادي أشباح، يرمون شباكهم في مياه راكدة، ولا يصطادون سوى ظلالهم البليدة.

كذا شهرتكم بشفتي، ولكن قلبي، والدماء تنزف منه، كان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها.

أجل أيها الأصحاب والجيران، فإن المحبة قد خاطبتكم بسياط ذاتها.

والكبرياء قد رقصت أمامكم متعفرة بغبار خيبتها مذبوحة بآلامها.

وتعطشي لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح.

ولكن محبتي كانت تسألكم صفحاً وهي راكعة صامتة.

ولكن إليكم المعجزة يا قوم:

إن تستري قد فتح عيونكم، وبغضي قد أيقظ قلوبكم.

والآن أنتم تحبونني!.

إنكم لا تحبون سوى السيوف التي تطعن قلوبكم والسهام التي تخرق صدوركم.

لأنكم لا تتعزون إلا بجراحكم، ولا تسكرون إلا بخمرة دمائكم.

وكما يتجمع الفراش حول اللهيب. ساعياً وراء حتفه، تجتمعون أنتم كل يوم في حديقتي، وبوجوه مرتفعة، وعيون شاخصة. تراقبونني وأنا أمزق نسيج أيامكم، فتتهامسون فيما بينكم قائلين:

إنه يبصر بنور الله، ويتكلم كأنبياء المتقدمين، فيحسر القناع عن نفوسنا، ويحطم أقفال قلوبنا، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب، يعرف هو أيضاً طرقنا ومسالكنا.

بلى، فإنني بالحقيقة أعرف طرقكم، ولكن كما يعرف النسر طرق فراخه. وإنني، بمسرة قلب، قد كشفت لكم سري، ولكنني لحاجة بي إلى قربكم، أتظاهر بالجفاء، وخوفاً مني على دنو قضاء محبتكم أقوم على حراسة سدود محبتي.

وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطى وجهه بيديه وبكى بكاءً

مراً، لأنه أدرك في قلبه أن المحبة المحتقرة في عريها لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تسترها وتنكرها، وخجل إذ ذاك من ذاته.

ثم رفع رأسه بغتة، وكأنه أفاق من نوم عميق، وبسط ذراعيه وقال: هاقد ولى الليل، ونحن أولاد الليل يجب أن نموت عندما يأتي الفجر متوكئاً على التلال، وستبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا، وستضحك في نور الشمس، وستكون خالدة.

فهرس